وجوه البر العصرية

للإحسانات والأوقاف الخيرية

لحضرة صاحب السعادة على جمال الدين باشا

فى مصر من الحبوس والأوقاف الخيرية ما يؤلف ثروة كبيرة ذات أرقام ضخمة، ويشهد للمصريين بتأصل روح البر فى نفوسهم وتغلغل الإحسان فى دمائهم، فأينما سار الإنسان يجد "وقفا" على نوع من أنواع البر، إما أطيانا أو دورا أو ريع هذه الأطيان والدور، وفى معظم شوارع القاهرة وحاراتها مساجد وزوايا وتكايا و"سبل" للشرب ومكاتب ومدارس، ينفق عليها من ريع هذه الأوقاف .

وقد كانت وجوه البر التى رصدت لها هذه الأوقاف قديما تلبى حاجة ذلك العصر وتتمشى مع الروح العامة المتمشية فيه. أما اليوم فالكثير منها لا يتفق مع حاجات العصر الحاضر، وقد نشأت وجوه للبر جديدة، ونشأت احتياجات عصرية، مع تطور الزمن وتنوع الحاجات .

و"السبيل" الذى يمد المارة من المشاة بماء الشرب، كان طبيعيا ومفهوما أيام كان الماء ينقل من النيل على ظهور الجمال والحمير أو ظهور "السقائين" فكان المارة الذين يدهمهم العطش فى الطرقات فى حاجة إلى ماء مباح يستقون منه، ويروون الظمأ من حر الهجير. أما اليوم فإن شركة المياه قد أوصلت الماء إلى كل مكان، ولم تعد هناك حاجة إلى ماء الطريق إذ أن الترام ووسائل المواصلات الأخرى تنقل الناس من جهة إلى جهة فى مدة وجيزة ولا تحوجهم أن يذهبوا إلى "السبيل" .

ومثل ماء "السبيل" كثير من وجوه البر القديمة لم نعد فى حاجة إليها، أو أصبح الموجود منها كافيا للحاجة بل زائدا عنها فى بعض الأحيان .

وليس لنا أن نلوم أصحاب الأوقاف القدامى إذا قرأنا الآن حجج أوقافهم فرأينا فيها من وجوه الإنفاق ما لا وجود له فى عصرنا أو ما لا حاجة بنا إليه، فقد كانوا يلبون حاجة زمانهم، ولكن اللوم واقع علينا إذا كانت هناك نواح خيرية لم يلب حاجتها الواقفون فى هذا الزمان والمتبرعون منا بالإحسان، والذين ينشئون الأوقاف فى أيامنا هـذه فيجارون فيها

الأحداد إنما يعيشون بعقلية متحجرة. ومن الواجب أن تبث وزارة الأوقاف دعاية قوية بوساطة خطبائها ووعاظها تحث على تلبية وجوه البر العصرية . وتحويل مصارف الوقف إلى ما يناسب الزمن الذى نعيش فيه .

*

ومن أول وجوه البر العصرية ما يساعد على التعليم ، فإن ميزانية الدولة لا تنهض بكل الأعباء المطلوبة لتيسيره على كل راغب فيه ، والمساعدة على التعليم تتناول شؤونا كثيرة :

منها إنشاء المدارس والمعاهد المجانية أو المخفضة التكاليف ، أو التى تسد نقصا فى التعليم لا تستطيع الميزانية سده . وقد كان هذا هو الأساس الذى قامت عليه الجامعة المصرية عند إنشائها ، وكان اتجاه الواقفين والمتبرعين لها بالأطيان والأموال دليلا على التطور الفكرى والتوجه بالخير إلى أفضل وجوهه .

ومن المناسب أن نحيي هنا من كانوا فى مقدمة الواقفين والمتبرعين للجامعة المصرية ، إذ كانوا أول من تنبه فى العصر الحديث لتلبية مطالب الجيل .

فقد تبرعت سمو الأميرة فاطمة هانم كريمة المغفور له اسماعيل باشا بستة أفدنة من أراضى البناء بالدقى لبناء دار الجامعة عليها ووقفت ستمائة فدان من أجود أطيانها ليصرف ريعها على الجامعة ، وذلك غير ثمن جواهرها الثمينة التى تبلغ قيمتها ثمانية عشر ألف جنيه .

ووقف سمو الأمير يوسف كمال مائة وخمسة وعشرين فدانا من أطيانه بالقليوبية ، ومعها ثمانمائة جنيه للمساعدة فى نفقات إصلاح تلك الأطيان .

وتقدم أحمد بك الشريف بمائة فدان من أطيانه بالبحيرة ، وحسن بك زايد بخمسين فدانا فى المنوفية ، ومصطفى كامل الغمراوى بك بستة أفدنة .

فكانت هذه التبرعات هى النواة التى قام عليها أكبر صرح للثقافة العالية فى مصر فى وقت لم تكن الدولة لظروف سياسية خاصة تستطيع أن تنهض بهذا الواجب المقدس .

وكذلك أنشأ سمو الأمير يوسف كمال مدرسة الفنون الجميلة من أمواله وأوقافه لتسد نقصا فى الناحية الفنية لم يكن من اللائق أن يبقى بعد نهضة البلاد ، وكان فى هذا نموذجا طيبا لرقى التفكير وفى التوجه بالبر إلى أحسن الوجوه .

والمساعدة على التعليم تشمل رصد الأوقاف لإرسال البعوث الخارجية فى العلوم التى تحتاج إليها مصر فى نهضتها ، ومن الأمثلة الطيبة هذا الاتجاه "البعثة النهمية" وهى أثر باق مفيد للأفراد والمجموع .

، لا يقل عن إرسال بعثات تيسير السبيل للطلاب الذين يتعلمون فى مصر ذاتها ممن تضيق مواردهم عن إكمال التعليم . والجامعة والمدارس المختلفة تضطر فى ظروف يقيدها القانون فيها بقيوده أن تطرد من رحمة التعليم فى كل عام عدداً من الطلاب لعجزهم عن دفع المصروفات المقررة ، فحبذا لو كان فى الأوقاف والإحسانات ما يكفل لهؤلاء إتمام تعليمهم بعد ما قضوا فيه شطرا عزيزا من العمر لا يستطيعون تعويضه .

وهناك مشكلة فى حياة بعض الطلاب الذين يفدون إلى العاصمة فى طلب العلم ، ثم لا يجدون المأوى المناسب والسكن المريح والغذاء الوافى والرعاية المطلوبة ، فلم لا يكون من بين الأوقاف ما ينشئ " بيوت الطلبة " بحيث يجد الطلاب سكنا طيبا وغذاء مناسبا ومشرفاً يأخذ مرتبه من الوقف وينظم حياة الطلاب فى هذه البيوت تحت إشراف الجامعة ووزارة المعارف . وبذلك نخدم الطلاب أجمل خدمة فى أبدانهم وأخلاقهم وفى تحصيلهم العلمى وتوجيههم الاجتماعى .

وليس هذا بالأمر الجديد ، فأروقة الأزهر وأوقافها الخاصة بها قائمة على هذا الأساس الذى لا يحتاج إلا بعض التحوير حتى يصبح وافيا بحاجة العصر ومطالب الجيل ، ولا يجوز أن تقصر عقولنا عن عقول القرن السادس وما يليه .

*

إذ تجاوزنا ناحية التعليم وجدنا ناحية المستشفيات ، ونسبتها فى مصر بالقياس للمرضى نسبة ضئيلة جدا ، وميزانية الدولة لا تسد الحاجة إلا بعد أجيال إذا نحن اقتصرنا على ما تنشئه من المستشفيات الحكومية .

ومن حسن الحظ أن استطاعت جمعية المواساة كما استطاعت الجمعية الخيرية أن تنشئ مستشفاها عن طريق أوراق اليانصيب ، ولكن الأمة فى حاجة إلى عشرات من هذه المستشفيات تنبث فى كل مدينة وتنقذ البائسين من المرضى وترد عليهم الصحة والعافية وتعيدهم للأمة أعضاء سليمة لا علة عليها كما هم الآن .

وهذه المستشفيات فى حاجة بعد إنشائها إلى مال ينفق عليها ، وتضمن به إدارة أعمالها وتوفير أجهزتها وأدويتها وأدواتها ، فلم لا تكون هناك أوقاف وإحسانات تفى بذلك كله ، كما وفت أوقاف الأجيال الماضية بالتكايا والزوايا والسبل والمقارئ ؟

وبعض الأمراض تعجز أصحابها عن الكسب وتعرض المخالطين لهم من الزوجات والأبناء للعدوى كمرض السل مثلا ، وهؤلاء المرضى المساكين يظلون يعملون تحت ضغط الحاجة مادام هذا المرض لا يلزمهم الفراش ، مع أن العمل فيه عدو الشفاء ، ولو وجدوا برا بهم وتوفيرا للزاد لهم ولأبنائهم لاعتكفوا حتى يبرءوا وترد عليهم عافيتهم المسلوبة .

ولا أطيل الحديث عن حاجة الأمة إلى الملاجئ المختلفة : ملاجئ الأطفال ، وملاجئ العجزة ، فطرقات القاهرة وسواها تعج بمن يهيمون على وجوههم فيها أشباحا هزيلة قذرة مريضة ، يمدون أيديهم للسؤال ويعرضون جوارحهم وأوصالهم المشوهة ، وينقلون الأمراض ويسرقون النقود ، ويشوهون كل معنى من معاني الحياة والجمال .

هؤلاء لاتنهض موارد الدولة بكفالتهم ، وهم أولى وأحق بالرعاية في هذا الزمان من "تنابلة" التكايا وقعيدي المقارئ ، فهم أجدر برصد الإحسانات ووقف الأوقاف عليهم منذ الآن .

* *

وينضم إلى هؤلاء المشردين في الحاجة إلى الرعاية والكفالة أولئك الذين تلفظهم إصلاحيات الأحداث وإصلاحيات الرجال ، والسجون عامة ، حيث يجدون أنفسهم بعد أن تلفظهم السجون في مجتمع يتنكر لهم ، ولا يفسح لهم منفذا للحياة الشريفة ، حتى إذا ضاقت بهم السبل عادوا إلى الجريمة ليعودوا إلى السجن من جديد ، بعد أن يجدوا أن السجن هو المكان الوحيد الذي يفتح أبوابه لهم ويطعمهم ويكسوهم !

ولو وجد هؤلاء المنكوبون بيوتا تؤويهم وجماعات تتولاهم بالعطف والرعاية والارشاد والتطهير ، ثم تقدمهم للمجتمع أطهارا وتضمنهم وتبقى على صلة بهم حتى لايزيغوا ولايحيدوا عن الطريق المستقيم . لو وجدوا مثل هذه الرعاية لكسبوا أنفسهم ولكسبهم المجتمع ولكان هذا العمل قربة القرب إلى الله ، وأفضل وجوه البر في الدنيا والآخرة .

* *

واللواتي ينبذهن المجتمع لخطيئة لايقل عددهن أو ضروفهن عمن ينبذهم المجتمع لجريمة ، فمنهن نسوة بائسات شقيات ، زلت أقدامهن مرة فلم يعد لهن مأوى إلا في أحضان "رذيلة" . ومهما رغبن بعد ذلك في الحياة الطاهرة ، فلن يجدن من يأخذ بيدهن ومن يكفلهن ويرد عليهن الثوب الأبيض الطاهر الذي نضته عنهن يد الحياة القاسية ، أو يد الخطيئة الملوثة .

لو وجدت هؤلاء الساقطات ومن هن على وشك السقوط يدا حانية وقلبا رحيما وملجأ يعصمهن من اللقمة المغذية ، والنصيحة المرشدة ، والمجتمع النظيف لعادت الكثيرات منهن إلى حياة الطهر والفضيلة .

وذلك لا يكون إلا بالمال ، ولا يكون إلا بالدور التي ينفق عليها من الأوقاف المحبوسة أو الإحسانات المبذولة . وفي ذلك أجر من يرد الرذيلة فضيلة ، ومن ينقذ البائسة المضطرة ، ومن يحفظ على الأمة حياءها ونقاوة ضميرها .

ولولا أن أخشى الإغراق فى الخيال لاقترحت أن يكون من بين وجوه إنفاق الخيرات ما تؤهل به الفقيرات اليتيمات للزواج ، وما يدفع منه الصداق معونة للشبان العزاب الذين لا يجدون ما ينفقون وهم راغبون فى إكمال نصف دينهم ، وفى منح الأمة أيادى عاملة وأسرا شريفة ومجتمعا نظيفا ؛ فذلك وجه من وجود البر العصرية التى تحتاج إليها الأسرة والمجتمع والتى تحل جانبا من مشكلة حديثة تواجهنا ولا نملك لها علاجا إلا بمثل هذه الوسيلة .

ولولا أن أخشى الإسراف فى الخيال لاقترحت أن يكون من بين وجوه الإنفاق أن يرصد جانب من الأوقاف لتخفيض نفقات الحياة على الفقراء فى الأزمات كالأزمة التى نحن فيها الآن بحيث يشترى بهذا المال غذاء وكساء فيوزع على الفقراء لا بالمجان ولكن بأسعار رخيصة نوعا تسهل لهم الحياة .

*
* *

تلك بعض الوجوه العصرية للبر لا كلها ، وهى تبين مدى حاجتنا إلى التجديد والتنويع فقد شبعنا تكايا ومقارئ وزوايا ، وأصبحنا نعيش فى عصر جديد لا بد له من بر جديد ، وعلينا أن نبث مثل هذه الأفكار فى الأوساط كلها مستعينين بالدعوة الدينية ، فالدين ليس جامدا ولا قاصرا ، ولكننا نحن الجامدون المقصرون ما

علی جمال الدين